

البَابُ الثَّالِثُ

فِي مَجَرَّبَاتِهِ وَمَنَازِلَاتِهِ وَمَا اتَّفَقَ لِأَصْحَابِهِ مَعَهُ
وَمَكَاشِفَاتِهِ

سمعت الشيخ أبا العباس رضى الله عنه يقول: كنت أنا وصيبي عند المؤدّب إذ جاء رجل فوجدني أكتب في لوح فقال لى: الصوفى لا يسودّ بياضاً، قال: فقلت له: ليس الأمر كما زعمت، ولكن لا يسود بياض الصحائف بسواد الذنوب.

وسمعتة يقول: عمل إلى جانب دارنا خيال الستارة وأنا إذ ذاك صبي فحضرتة، فلما أصبحت وأتيت إلى المؤدّب، وكان من أولياء الله أنشدنى حين رأتى:

يا ناظراً صور الخيال تعجباً وهو الخيال بعينه لو أبصرا
وقال رضى الله عنه: رأيت ليلة كأتى فى سماء الدنيا وإذا برجل أسمر اللون قصير الطول كبير اللحية، فقال قل:

اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد.
هذا دعاء الخضر، من قاله كل يوم كتب من الأبدال، فقيل لى: هذا الشيخ ابن أبى شامة، فلما انتهيت أتيت إلى الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فجلست ولم أخبره بشئ، فقال: اللهم اغفر لأمة محمد، واللهم ارحم أمة محمد، واللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد، هذا دعاء الخضر من قاله كل يوم كتب من الأبدال.

وقال رضى الله عنه: كنت أخرج كل يوم من باب البحر إلى نحو المنار، فخرجت يوماً إلى المنار، فنمت عند الجانب الشرقى، وكان قد خطر فى نفسى: ما سبب قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ مع كثرة ملازمته له؟

فإذا قائل يقول لى: أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وإنما قلت روايته عنه لتحققه به.

وقال رضى الله عنه: طالعت مقام الرحمة فإذا قائل يقول لى: والله ليكونن من رحمة الله يوم القيامة ما ينال منها ابن أبى الطواجن، وكان ابن أبى الطواجن هذا قد قتل الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما.

وقال رضى الله عنه: كنت مع الشيخ فى مدينة الرسول ﷺ فأردت أن أزور حمزة رضى الله عنه، فخرجت من المدينة، فتبعنى رجل فأتينا إلى التربة، فإذا الباب مغلق، فانفتح ببركة رسول الله ﷺ فدخلنا فوجدنا هناك رجلاً من الأبدال فقلت للرجل الذى تبعنى: ادع فى هذا الوقت بما تريد، فإنه

يستجاب لك، فدعا ذلك الرجل أن يعطيه الله دينارًا، فلما رجعنا إلى المدينة لقيه رجل فأعطاه دينارًا، فلما دخلنا على الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه قال له: يا بطلال صادفت وقت إجابة فسألت الله دينارًا! هلا سألت الله كما سأله أبو العباس، سأله أن يكفيه هم الدنيا وعذاب الآخرة وقد استجاب الله له في ذلك.

وقال رضى الله عنه: كنت يوما جالسا بين يدي الأستاذ فدخل عليه جماعة من الصالحين فلما خرجوا من عنده قال: هؤلاء أبدال، فنظرت ببصيرتي فلم أجدهم أبدالا، فتحيرت بين ما أخبر به الشيخ، وبين ما شهدته بصيرتي، فبعد ذلك بأيام قال الشيخ: من بدلت سيئاته حسنات فهو بدل، فعلمت أن الشيخ أراد أول مراتب البدلية.

وأخبرني الشيخ العارف نجم الدين الأصهباني، قال: قال لي الشيخ أبو العباس يوما: ما اسم كذا وكذا بالعجمية؟ فخطر لي أن الشيخ يجب أن يقف على لغة العجم، فأتيت إليه بكتاب «الترجمان» قال: فقال الشيخ: ما هذا الكتاب؟ فقلت: كتاب «الترجمان» قال: فضحك الشيخ وقال: سل بالعجمية ما شئت أجيبك بالعربية، وسل ما شئت بالعربية أجيبك بالعجمية، فسألته بالعجمية فأجابني بالعربية، وسألته بالعربية فأجابني بالعجمية، وقال: يا عبد الله ما أردت بقولي ما اسم كذا إلا مباسطتك، وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن، ويخفى عليه شيء من الألسنة.

وأخبرني أيضا قال: قال الشيخ أبو العباس يوما: كم بين بلدة كذا وبلدة كذا من نهر لبلدين من بلاد العجم؟ فقلت: أربعة أنهر. فقال: والنهر الذي غرقت فيه؟ فذكرت أني نسيت نهرا أتيت لأخوضه فكدت أن أغرق فيه.

وأخبرني الشيخ العارف ياقوت: قال: عزم على إنسان فقدم لي طعاما، فرأيت عليه ظلمة كالمكب فقلت في نفسي: هذا حرام فامتنعت من أكله، ثم دخلت على الشيخ أبي العباس رضى الله عنه فقال: أول ما جلست: ومن جهلة المريدين من يقدم له طعام فيرى عليه ظلمة فيقول هذا حرام، يا مسكين ما يساوى ورعك سوء ظنك في أخيك المسلم، هلا قلت هذا طعام لم يردن الله به. ودخلت أنا عليه يوما، وفي نفسي ترك الأسباب والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قاتلا: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة.

فقال من غير أن أبدى له شيئا: صحبني بقوص إنسان يقال له: ابن ناشئ وكان مدرسا بها ونائب الحكم، فذاق من هذا الطريق شيئا على أيدينا. فقال: يا سيدي أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟

فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل.

ثم قال: وهذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم.

فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى وكأنما كانت ثوبا نزعته، ورضيت عن الله فيها أقامنى فيه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأيت وأنا بالمغرب دائرة من الرجال، ورجلا في وسطها، وكل من في تلك الدائرة متوجه إليه، فقلت في نفسي: هذا هو القطب، وعرفت ذلك الرجل بصفته وبقيت كلما ذكر لي عن رجل آتى إليه وأقول: عسى أن يكون ذلك الرجل الذي رأيت في وسط الدائرة، حتى قيل لي عن الشيخ أبي العباس، فأتيته إليه فإذا هو ذلك الرجل الذي رأيت في وسط الدائرة فأخبرته، فقال: نعم أنا القطب، أما الذين يقابلون بطني لهم المدد من باطن حقيقتي، والذين يقابلون ظهري لهم المدد من ظاهر علمي، والذين يقابلون جنبي لهم المدد من العلوم التي بين جنبي. وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقراة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله، متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجله في الأرض، وتهباً لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه، ودخل من رأسه، حتى غاب فيه واستيقظت.

وأخبرني الشيخ محمد السراج رحمه الله قال: كنت ليلة من الليالي نائما وأنا أرى في المنام قائلا يقول لي: اذهب إلى خارج الإسكندرية من باب السدرة، فأول بستان تلقاه من الجانب الأيسر فادخل فيه فإنك تجد فيه جماعة من الناس، الجالس منهم تحت أطول نخلة هناك رجل من الرجال، ثم قيل: إن في الجامع حلقة من دخل فيها فهو آمن، فلما أصبحت خرجت إلى ظاهر الإسكندرية ودخلت أول بستان من الجانب الأيسر، فوجدت حلقة هناك، فرفعت بصري لأنظر إلى أطولها نخلة، فإذا قائل يقول لي: كلها طوال؛ فإذا الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه، فسلمت عليه وجلست وقلت: يا سيدى رأيت البارحة كذا وكذا وقصصت عليه الرؤيا فقال: الجامع أنا، والحلقة هم أصحابي، ومن دخل فيها فهو آمن، أى من دخل في شروطنا فهو آمن، ثم قال: أنا الليلة آتيك فقلت: يا سيدى أنتظرك على الباب، أو أترك الباب لك مفتوحاً؟ فقال: لا ولكن اغلق بابك، وأنا آتيك.

قال: فلما كان الليل أخذني شبيه الوهم، وصرت أقول: من أين يأتى؟ من هنا يأتى، لا بل من هنا يأتى، فلم أطق المكث، فخرجت إلى رباط الواسطي، وصعدت المأذنة، ووقفت أصلي، فأنا في الصلاة، وإذا الشيخ أبو العباس قد أتى في الهواء وقال: يا محمد، أنتظن أنك إذا جئت هنا يخفى على مكانك؟ فقلت: يا سيدى إنما جئت هنا لأنى لم أطق المكث، وهالنى الأمر، وكان المخاطب له منى لسانا آخر غير الذى كنت أقرأ به.

وأخبرني بعض أصحابه قال: كنا مع الشيخ بمدينة «قوص»؛ وكان من أصحاب الشيخ أبى العباس أبو الحسن المرسى، وكان في خلقه حدة فنزل ولد الشيخ يوما يلعب كما يلعب الصبيان، فقال له الشيخ أبو الحسن المرسى: اطلع لا أطلعك الله، فسمعه الشيخ أبو العباس فنزل وقال: يا أبا الحسن حسن خلقك مع الناس، بقى لك عام وتموت، فمات إلى تمام العام.

وأخبرني أبو عبد الله الحكيم المرسى رحمه الله قال: قدم علينا الشيخ بأشموه، فلما جن الليل دعاني الشيخ وقال: ادن منى يا حكيم فدنوت منه فوضع يده خلف ظهري، وفعلت أنا كذلك،

وَضَمْنِي إِلَيْهِ وَيَكُنِي: فَبَكَيْتَ لِبُكَائِهِ وَلَمْ أَدْرَمْ بِكُنِي؟ فَقَالَ: يَا حَكِيمُ مَا جِئْتُمْ إِلَّا مُودَعًا، يَا حَكِيمُ نَذْهَبُ إِلَى الْمَقْسَمِ نُوْدِعُ أَخِي ثُمَّ نَعُودُ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ نَبِيْتُ بِهَا لَيْلَةً، وَنَدْخُلُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي قَبْرِى، فَسَافِرُ فَأَقَامَ عِنْدَ أَخِيهِ مَدَّةَ يَسِيرَةٍ، ثُمَّ انْهَدَرَ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ فَأَقَامَ بِهَا لَيْلَةً، وَدَخَلَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي قَبْرَهُ كَمَا قَالَ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَأَخْبَرَنِي سَيِّدِي جَمَالُ الدِّينِ وَلَدُ الشَّيْخِ رَضَى اللَّهُ عَنْهَا: قَالَ: وَرَدَ رَسُولُ الْإِفْرَنْجِ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ فَذَهَبَتْ لِأَنْظَرِهِ، وَلَمْ أَعْلَمْ الشَّيْخَ، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَ: أَيْنَ كُنْتَ؟ قُلْتُ: هُنَا.

قَالَ: بَلْ ذَهَبْتَ تَنْظُرُ رَسُولَ الْإِفْرَنْجِ، أَتُظَنُّ أَنَّ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِكَ يَخْفَى عَلَيَّ؟ كَانَ الرَّسُولُ لَا بَسًا كَذَا وَكَذَا، رَاكِبًا عَلَى كَذَا عَنْ يَمِينِهِ فَلَانٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ فَلَانٌ فَوْصَفَ الْحَالِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ؟

وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَدْبُولِيُّ قَالَ: قَالَ لِيَ الشَّيْخُ: يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ سَقَيْتَ الْفَرَسَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَكُرِّرْ ذَلِكَ مَرَارًا وَأَنَا أَقُولُ نَعَمْ، فَفِي الْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ قَالَ يَا اللَّهُ. وَطَارَ فِي الْهَوَاءِ حَتَّى غَابَ عَنْ بَصَرِي، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي: قَالَ: يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ مَا الَّذِي يَحُوجُ الْإِنْسَانَ مِنْكُمْ أَنْ يَقُولَ غَيْرَ الْحَقِّ، كُنْتُ تَقُولُ مَا سَقَيْتَهَا، وَمَاذَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِكَ إِذَا لَمْ تَسْقِهَا؟

وَكُنْتُ أَنَا سَمِعْتُ الطَّلَبَةَ يَقُولُونَ: مَنْ يَصْحَبُ الْمَشَايِخَ لَا يَجِيءُ مِنْهُ فِي الْعِلْمِ الظَّاهِرِ شَيْءٌ، فَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ يَفُوتَنِي الْعِلْمُ، وَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ تَفُوتَنِي صَحْبَةُ الشَّيْخِ رَضَى اللَّهُ عَنْهُ.

فَأَتَيْتُ إِلَى الشَّيْخِ فَوَجَدْتُهُ يَأْكُلُ لَحْمًا يَخْلُفُ قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَيْتَ الشَّيْخَ يَطْعَمَنِي لَقْمَةً مِنْ يَدِهِ فَمَا اسْتَمْتَمَ الْخَاطِرُ إِلَّا وَقَدْ دَفَعَ فِي فَمِي لَقْمَةً فِي يَدِهِ ثُمَّ قَالَ:

نَحْنُ إِذَا صَحَبْنَا تَاجِرًا مَا نَقُولُ لَهُ أَتَرَكَ تِجَارَتَكَ وَتَعَالَ، أَوْ صَاحِبَ صَنْعَةٍ مَا نَقُولُ لَهُ أَتَرَكَ صَنْعَتَكَ وَتَعَالَ، أَوْ طَالِبَ عِلْمٍ مَا نَقُولُ لَهُ أَتَرَكَ طَلَبَكَ وَتَعَالَ، وَلَكِنْ نَقْرُ كُلُّ أَحَدٍ فِيهِمَا أَقَامَهُ اللَّهُ فِيهِ، وَمَا قَسَمَ لَهُ عَلَى أَيْدِينَا فَهُوَ وَاصِلٌ إِلَيْهِ.

وَقَدْ صَحَبَ الصَّحَابَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَمَا قَالَ لِتَاجِرٍ أَتَرَكَ تِجَارَتَكَ وَلَا لِذِي صَنْعَةٍ أَتَرَكَ صَنْعَتَكَ بَلْ أَقْرَهُمْ عَلَى أَسْبَابِهِمْ وَأَمْرِهِمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فِيهَا.

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَافَرْتُ إِلَى «قُوصٍ» وَمَعِيَ خَمْسُ أَنْفُسٍ: الْحَاجُّ سَلِيمَانُ، وَأَحْمَدُ بْنُ الزَّيْنِ، وَأَبُو الرَّبِيعِ، وَأَبُو الْحَسَنِ الْمَرْسِيُّ، وَفَلَانٌ، فَقَالَ لِيَ إِنْسَانٌ: مَا الَّذِي تَقْصِدُ بِسَفَرِكَ يَا سَيِّدِي؟ فَقُلْتُ لَهُ: أَدْفِنُ هَؤُلَاءِ بِقُوصٍ وَأَجِيءُ؛ فَدَفَنْتُ الْخَمْسَةَ بِهَا، أَمَّا الْحَاجُّ سَلِيمَانُ فَمَا مَاتَ حَتَّى شَرِبَ مِنْ حَوْضِ الْكُوْثَرِ، وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: نَزَلَ عِنْدَهُ بَعْضُ الْأَعْيَانِ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أَشْتَهِي مِنْ بَنِيهِ قَبْلَ الْفَجْرِ بَمَنْزِلَةٍ وَيَأْتِي بِإِيرِيقٍ مَاءٍ سَخِنَ وَيَأْتِينِي بِسَرَاخٍ وَيُرِينِي مَحَلَّ الطَّهَارَةِ قَالَ: فَمَا كَانَ قَبْلَ الْفَجْرِ إِلَّا وَطَارِقٌ يَطْرُقُ الْبَابَ؛ فَخَرَجْتُ فَإِذَا هُوَ الشَّيْخُ فَقَالَ: الْوَقْتُ قَبْلَ الْفَجْرِ بَمَنْزِلَةٍ وَهَذَا إِيرِيقٌ فِيهِ مَاءٌ سَخِنَ وَهَذِهِ شَمْعَةٌ تَعَالَ حَتَّى أُرِيكَ مَحَلَّ الطَّهَارَةِ.

وَكُنْتُ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِ الشَّيْخِ: أَرِيدُ لَوْ نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخِ بَعْنَايَةٍ وَجَعَلْتَنِي فِي خَاطِرِهِ؛ فَقَالَ ذَلِكَ لِلشَّيْخِ؛ فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى الشَّيْخِ رَضَى اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: لَا تَطَالِبُوا الشَّيْخَ بِأَنْ تَكُونُوا فِي خَاطِرِهِ، بَلْ طَالِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ فِي خَاطِرِكُمْ، فَعَلَى مَقْدَارِ مَا يَكُونُ الشَّيْخُ عِنْدَكُمْ تَكُونُونَ عِنْدَهُ.

ثم قال: أى شيء تريد أن تكون، والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله «ليكونن لك شأن عظيم»، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره.

وأخبرني سيدى جمال الدين ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ، هم يريدون يصدرون ابن عطاء الله فى الفقه. فقال الشيخ:

هم يصدرونه فى الفقه، وأنا أصدره فى التصوف.

ودخلت أنا عليه فقال لى: إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يجلسك فى موضع جدك؛ ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية؛ وتتكلم إن شاء الله فى العلمين فكان ما أخبر به رضى الله عنه. سمعته يقول: أريد أن أستنسخ كتاب التهذيب لولدى جمال الدين، فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ، وأتيته بالجزء الأول فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب التهذيب استنسخته لكم، فأخذه فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك؛ الولي لا يتفضل عليه أحد تجد هذا إن شاء الله فى ميزانك، فلما أتيته بالجزء الثانى لقينى بعض أصحابه بعد نزولى من عنده؛ وقال: قال الشيخ عنك: والله لأجعلنه عينا من عيون الله يقتدى به فى العلم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقينى بعض أصحابى وقال: طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء، فقال: هذا كتاب استنسخه لى ابن عطاء الله، فوالله ما أرضى له بجلسة جده، ولكن بزيادة التصوف.

وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ يوماً: إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية، فأعلموني به. فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك. فقال: تقدّم فتقدمت بين يديه، ثم قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذّبه قريش، فقال له جبريل عليه السلام: هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش. فسلم عليه ملك الجبال وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فعلت. فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً، فصر عليهم رسول الله ﷺ رجاء من يخرج من أصلابهم^(١)، كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

وخرجت يوماً من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه وخرج معى أبو الحسن الجزيرى - وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن - فسلمت عليه فسلم علىّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفنى؟ فقال: وكيف لا أعرفك! كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبى العباس

(١) عندما لقي رسول الله ﷺ من أهل الطائف الكثير من الأذى ودعا دعاءه المشهور: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس». عند ذلك نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال وكما روى البخارى بسنده عن عائشة قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من أحد؟ فقال:

لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم بعد يوم العقبة إذ عرضت نفسى على عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت على وجهى وأنا مغموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وماردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فنادانى ملك الجبال فسلم على فقال: يا محمد ذلك لك: إن شئت أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبى ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً» وانظر الروض الأنف ٥٦/٤ - ٥٧.

وكنّ أنت عنده فلما نزلت قلت له: يا سيدى إنه ليعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة، وهذا الشاب ملازم قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله. فكان كما قال الشيخ والله الحمد.

وأخبرني أبو الحسن هذا قال: كنت ليلة عند الشيخ أبي الحسن، وكان يقرأ عليه كتاب «ختم الأولياء» للترمذى الحكيم، فرأيت واحداً جالساً لم يطلع معنا. ولم يكن عند الشيخ وقت طلوعنا، فقلت لإنسان إلى جانبى: من هذا الرجل الجالس إلى جانب فلان؟

فقال: ما ههنا أحد غير الجماعة الذين تعرفهم، فسكتُ وعلمتُ أنه لم يره فلما انصرف الجمع سألت الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه فقلت: يا سيدى رأيت هنا رجلاً لم يطلع معنا ولم يكن عندك قبل طلوعنا، فقال الشيخ: ذاك أبو العباس المرسى يأتي كل ليلة من المقسم حتى يسمع الميعاد ثم يعود من ليلته إلى مكانه والشيخ أبو الحسن إذ ذاك بالإسكندرية.

وكنّ كثيراً ما يطراً على الوسواس في الطهارة فيبلغ ذلك الشيخ أبا الحسن فقال: بلغني أن بك وسواساً في الوضوء.

قلت: نعم.

فقال رضى الله عنه: هذه الطائفة تلعب بالشیطان، لا الشيطان يلعب بها، ثم مكثت أياماً ودخلت عليه فقال: ما حال هذا الوسواس؟ فقلت: على حاله.

فقال: إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تعد تأتينا، فشق ذلك على قطع الله الوسواس عني. وكان رضى الله عنه يلقي للوسواس: «سبحان الملك الخلاق، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز».

وعملت فيه قصيدة أمدحه بها سيأتى ذكرها إن شاء الله آخر الكتاب فقال - حين أنشدت - :
أيذك الله بروح القدس. ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته - جواباً لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد أحميم وسيأتى ذكرها أيضاً آخر الكتاب إن شاء الله تعالى - فلما قرئت عليه قال: هذا الفقيه صبحني وبه مرضان، وقد عافاه الله منها، ولا بد أن يجلس، ويتحدث في العلمين.

يشير الشيخ إلى مرض الوسوسة فقد انقطع عني ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التي أجدها قد تساهلت في بعض الأمور.

والمرض الآخر: كان بي ألم برأسى فشكوت ذلك إليه فدعا لى، فعافاني الله وشفاني. وبت ليلة من الليالي مهموماً، فرأيت الشيخ في المنام فشكوت إليه ما أنا فيه، فقال: اسكت والله لأعلمنك علماً عظيماً، فلما استيقظت أتيت إلى الشيخ رضى الله عنه، فقصص عليه الرؤيا فقال: هكذا تكون إن شاء الله.

وقدم يوماً من السفر فخرجنا للقاءه فلما سلمت عليه قال: يا أحمد كان الله لك، ولطف بك، وسلك بك سبيل أوليائه، وهماك بين خلقه. فلقد وجدت بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لا يمكنني الانقطاع عن الخلق، وأنى مراد بهم، لقوله: «وهماك بين خلقه».

وكننت أنا لأمره من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صحَّ نقله عنه، حتى جرت بيني وبين بعض أصحابه مقالة، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلّا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظماً وظاهر الشرع يأباه. فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ، تدرى ما قال لي الشيخ يوم تخاصمنا؟ قلت: لا. قال: دخلت عليه فأول ما قال لي: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا، ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم، من الذي كان ينقله عنه من يقصده بالأذى.

وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: دعني أذهب أرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه. فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها فقال:

الأول: إسلام.

والثاني: إيمان.

والثالث: إحسان.

وإن شئت قلت: الأول عبادة.

والثاني: عبودية.

والثالث: عبودة.

وإن شئت قلت: الأول شريعة.

والثاني: حقيقة.

والثالث: تحقق، أو نحو هذا.

فما زال يقول: «وإن شئت قلت» «وإن شئت قلت» إلى أن بهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهي، ومدد ربّاني، فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة، إلى المنزل فلم أجد فيّ شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدت معني غريباً لا أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء، وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن عليّ فلما دخلت عليه، قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: ياسيدي أنا والله أحبك.

فقال: أحبك الله كما أحبتني، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال رضى الله عنه:

أحوال العبد أربعة لا خامس لها:

النعمة والبليّة، والطاعة، والمعصية.

فإن كنتَ بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر.

وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر.
 وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك.
 وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.
 فقامت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته ثم سألتني بعد ذلك بمدة كيف حالك؟
 فقلت: أفتش على الهم فلا أجده، فقال رضى الله عنه:

ليلى بوجهك مقمر وظلامه فى الناس سار
 والناس فى سدف الظلام ونحن فى ضوء النهار

الزم. فوالله لئن لزمتم لتكونن مفتياً فى المذهبين، يريد
 مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر
 ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن.